الصّفير والتّأزّم
في
سينيّة البحتري

سينيّة البحتري

قال يَصِفُ إيوان كِسْرَى ويتعزَّى به :

1 صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي ... وَتَرَفَّعتُ عن جَدَا كلِّ جِبْسِ
وتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِي الدَّهْـ ... ـرُ ٱلْتِمَاسًا مِنْهُ لِتَعْسِي ونَكْسِي
بُلَغٌ مِنْ صُبَابَةِ ٱلعَيْشِ عِنْدِي ... طَفَّفَتْهَا ٱلأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ
وبَعِيدٌ ما بَيْنَ وَارِدِ رَفْهٍ ... عَلَلٍ شُرْبُهُ، ووَارِدِ خِمْسِ
5 وكأَنَّ الزَّمانَ أَصْبَحَ مَحْمُو ... لاً هَوَاهُ مع الأَخَسِّ ٱلأَخَسِّ
وٱشْتِرَائي «ٱلعِرَاقَ» خُطَّةُ غَبْنٍ ... بعْدَ بَيْعِي «الشَّآمَ» بَيْعَةَ وَكْسِ
لا تَرُزْنِي مُزَاوِلاً لاخْتِبَارِي ... بَعدَ هٰذِي ٱلْبَلْوَى فَتُنْكِرَ مَسِّي
وقَدِيمًا عَهِدْتَنِي ذَا هَنَاتٍ ... آبِيَاتٍ عَلَى الدَّنِيَّات شُمْسِ
ولقد رَابَنِي نُبُوُّ ٱبْنِ عَمِّي ... بَعْدَ لِينٍ مِنْ جانِبَيْهِ وأُنْسِ

(1) الجدا : العطاء.
(2) الجبس : الجبان واللّئيم والفاسق والثقيل الروح.
(3) البُلغ : ج. بُلغة وهي ما يتبلّغ به في العيش ولا يفضل منه شيء.
الصّبابة : البقيّة من الماء.
(4) الرّفه : طيب العيش ولينه، ورفهت الإبل : وردت الماء متى شاءت.
العَلَل : ورود الماء ثانية بعد الورود الأوّل الذي يسمّى النّهل.
الخِمس : من أظماء الإبل وهي أن ترعى ثلاثة أيّام وترد في اليوم الرابع.
(6) الغَبن : الخداع في البيع والشّراء.
الوَكس : النقصان والخسارة.
(7) رَازَهُ يَرُوزُه : جرّبه.
(8) الشُّمس : العنيدة التي لا تُذَلّل.
(9) النبوّ : الجفوة والنفور. يقصد الشاعر بقوله «ابن عمّي» : الراهب عبدون بن مخلد، وهو من أصل يمنيّ مثله يرجع نسبه إلى الحارث بن كعب، فهو مِذْحِجِيّ والشاعر طائيّ.

10 وإذا ما جُفِيتُ كُنْتُ جَدِيرًا ... أَنْ أُرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي
حَضَرَتْ رَحْلِيَ ٱلْهُمُومُ فَوَجَّهْـ ... ـتُ إِلى «أَبْيَضِ ٱلْمَدَائِنِ» عَنْسِي
أَتَسَلَّى عَنِ ٱلْحُظُوظِ، وآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ «آلِ سَاسَانَ» دَرْسِ
أَذْكَرَتْنِيهِمُ ٱلْخُطُوبُ التَّوَالِي؛ ... ولَقَدْ تُذْكِرُ ٱلْخُطُوبُ وتُنْسِي
وَهُمُ حَافِظُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ ... مُشْرِفٍ يَحْسِرُ ٱلْعُيُونَ ويُخْسِي
15 مُعْلَقٍ بِأُسِّهِ عَلَى «جَبَلِ ٱلْقَبْـ ... ـقِ» إِلى دَارَتَيْ «خِلاَطَ» و«مُكْسِ»
حِلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلاَلِ «سُعْدَى» ... فِي قِفَارٍ مِنَ ٱلْبَسَابِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ، لَوْلاَ ٱلْمُحَابَاةُ مِنِّي، ... لَمْ تُطِقْهَا مَسْعَاةُ «عَنْسٍ» و«عَبْسِ»
نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ عَنِ ٱلْحِدَّةِ حَتَّى رَجَعْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ
فَكَأَنَّ «ٱلْجِرْمَازَ» مِنْ عَدَمِ ٱلأُنْـ ... ـسِ وإِخْلاَلِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
20 لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ ٱللَّيَالِي ... جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهْوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ ... لاَ يُشَابُ ٱلْبَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ
وإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ «أَنْطَا ... كِيَّةَ» ٱرْتَعَتْ بَيْنَ «رُومٍ» و«فُرْسِ»

(11) المدائن : اسم أطلق في العصور الوسطى على مدينة أو مجموعة مدن في العراق على مسافة 30 كم جنوبي بغداد.

(12) آل ساسان : سلالة فارسية ملكت خلال 226 ــ 651 م من أشهر ملوكها كسرى أنو شروان.

(14) يخسي : يُخسيءُ بمعنى يحسر : يُضعف.

(15) الدّارة : المحلّ يجمعُ البناء والعرصة، كلّ أرض واسعة بين جبال، ما أحاط بالشّيء. القبق : جبل متّصل بباب الأبواب وبلاد اللاّن وهو آخر حدود أرمينية، وهو جبل القوقاز. خلاط ويقال أخلاط : قصبة أرمينية الوسطى. مُكس : موضع بأرمينية من ناحية البَسْفُرّجان.

(16) حِلل : ج. حلّة : منازل. البسابس : القفار. المُلس : التي لا ثبات فيها.

(17) عَنس : قبيلة قحطانية من اليمن. عَبس : قبيلة عدنانيّة من نجد.

(18) جِدّة الشيء : حداثته. الأنضاء : ج. النّضو وهو المهزول من الحيوان؛ ومن الثياب : البالي. اللُّبس : الاستعمال؛ مصدر «لبس الثّوب».

(19) الجرماز : هو اسم بناء كان عند أبيض المدائن ثمّ عفا أثره، وكان عظيما. الأنس : يجوز فيها كسر الهمزة بمعنى الخلوّ من السّكان، ويجوز الضمّ بمعنى الوحشة. الإخلال : التّرك والغياب؛ من أخلّ بالمكان أي غاب عنه وترك. البنيّة : الشّيء المبني. الرّمس : القبر مستويا مع وجه الأرض؛ والأصل فيه التّغطية.

(22) أنطاكية : مدينة في شمال سورية في الحوض الأدنى لنهر العاصي على مقربة من مصبّه، وهي الآن من مدن تركيا. وقد كان في الإيوان صورة كسرى أنو شروان وقيصر ملك أنطاكية يحاصرها ويحارب أهلها.

وٱلمَنَايَـــا مَوَاثِـــلٌ، و«أُنُـــوشِرْ ... وانَ يُزْجِي الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
في ٱخْضِرَارٍ من ٱللِّبَاسِ على أَصْـ ... ـفَرَ يَخْتَـالُ فـي صَبِيغَـةِ وَرْسِ
وعِـــرَاكُ الرِّجَـــال بَيْـــنَ يَدَيْـــهِ ... فِي خُفُوت مِنْهُمْ وإغْمَاض جَرْسِ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِـلِ رُمْـحٍ، ... ومُلِيـحٍ مِـــن السِّنَـــانِ بِتُـــرْسِ
تَصِفُ ٱلْعَيْـنُ أَنَّهُـمْ جِـدُّ أَحْيَـا ... ءٍ لَهُـــمْ بَيْنَهُـــمْ إِشَارةُ خُـــرْسِ
يَغْتَلِـي فِيهِـمِ ٱرْتِيَابِـي حَتَّـى ... تَتَقَرَّاهُـــمُ يَـــدايَ بِلَـــمْسِ
قد سَقَانِي وَلَـمْ يُصَرِّدْ «أَبُـو ٱلْغَـوْ ... ثِ» عَلَى ٱلْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خُلْسِ
مِـنْ مُـدَام تَظُنُّهَـا وَهْـيَ نَجْـمٌ ... ضَوَّأَ ٱللَّيْـــلَ أَوْ مُحَاجَـــةُ شَمْسِ
وتَرَاهَـــا إِذَا أَجَـــدَّتْ سُرُورًا ... وٱرْتِيَاحًـــا لِـــلشَّارِبِ ٱلمُتَـــحَسِّي
أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ مِنْ كُـلِّ قَـلْبٍ ... فَهْـيَ مَحْبُوبَـةٌ إِلَـى كُـلِّ نَـفْسِ
وَتَوَهَّـــمْتُ أَنَّ «كِسْرَى أَبَرْوِيـــ ... ـــزَ» مُعَاطِـــيَّ، و«ٱلْبَلَهْبَـــذَ» أُنْسِي
حُلُـــمٌ مُطْبِـــقٌ عَلَـــى الشَّكِّ عَيْنِـــي ... أَمْ أَمَـانٍ غَيَّـرْنَ ظَنِّـي وحَـدْسِي ؟!
وكَـأَنَّ «ٱلإِيـوانَ» مِـنْ عَـجَبِ الصَّنْـ ... ـعَةِ جَـوْبٌ فـي جَـنْبِ أَرْعَـنَ جِلْسِ
يُتَظَنَّـــى مِـــنَ ٱلْكَآبَـــةِ إِذْ يَبْـــ ... ـــدُو لِعَيْنَـيْ مُصَبِّـحٍ أَوْ مُـمَسِّي :
مُزْعَجًـا بِٱلْفِـرَاقِ عَـنْ أُنْسِ إِلْـفٍ ... عَـزَّ، أَو مُرْهَقًـا بِتَطْلِيـقِ عِـرْسِ

(23) يُزجي : يسوق. الدّرفس : العلم الكبير، معرّب من درفش بالفارسيّة. والموقعة التي يشير إليها الشاعر وكانت مسجّلة على جدران القصر وقعت سنة 540 م بين الفرس والرّوم.

(24) الوَرس : نبت أصفر باليمن يصبغ به ونباته كالسّمسم. والشاعر يصف هنا الفَرس الذي يمتطيه أنو شروان.

(26) المُشيح : الحَذِر المجدّ. عامل الرّمح : صدره. المُليح : الخائف الحذر.

(28) يغتلي، من الغلوّ : يتجاوز الحدّ ويزيد. تتقرّاهم : تتبعهم.

(29) لم يصرّد : لم يقلّل. شربة خلس : مختلسة سريعة. أبو الغوث : يحي بن البحتري.

(30) المجاجة : الرّيق، عصارة كلّ شيء.

(31) أجدّت : أحدثت.

(33) البَلَهْبَذ : مُغنّي كسرى أبرويز.

(35) الجوب من جاب الشيء خرقه؛ والصّخرة نقبها. الأرعن : الجبل ذو الرّعن وهو أنف يتقدّم الجبل. الجلس : الجبل العالي.

(36) يُتظنّى : يظنّ.

عَكَسَتْ حَظَّهُ ٱللَّيَالِي، وباتَ ٱلْـ ... ـمُشْتَرِي فِيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ
فهْوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا وعَلَيْهِ ... كَلْكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
لَمْ يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ ... ـباجِ، وٱسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ
مُشْمَخِرٌّ، تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ ... رُفِعَتْ في رُءُوسِ «رَضْوى» و«قُدْسِ»
لابِساتٌ مِنَ ٱلْبَيَاضِ فَمَا تُبْـ ... ـصِرُ مِنْهَا إلاَّ غَلائِلَ بُرْسِ
لَيسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ ... سَكَنُوهُ، أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ ... يَكُ بانِيهِ في المُلُوكِ بِنِكْسِ
فكَأَنِّي أَرَى ٱلمَرَاتِبَ وٱلقَوْ ... مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي
وكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى ... مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَامِ ونُحْسِ
وكَأَنَّ ٱلْقِيَانَ وَسْطَ ٱلمَقَاصِيـ ... ـرِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ ولُعْسِ
وكَأَنَّ ٱللِّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْـ ... ـسِ، وَوَشْكَ ٱلفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ
وكَأَنَّ ٱلَّذي يُرِيدُ ٱتِّبَاعًا ... طامِعٌ في لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
عُمِّرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْرًا، فَصَارَتْ ... لِلتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ والتَّأَسِّي
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ ... مُوقَفَاتٍ علَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ
ذَاكَ عِنْدِي، وَلَيْسَتِ الدَّارُ داري ... بِٱقْتِرَابٍ مِنْهَا، ولا ٱلجِنْسُ جِنْسِي
غَيْرَ نُعْمى لأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي ... غَرَسُوا مِن زَكائِها خَيْرَ غَرْسِ

(38) المشتري : كوكب سعد؛ ولكن الشاعر يقول إنّه انقلب كوكب نحس بما أصاب القصر من مصائب.

(40) بُزَّ : سلب. استلّ : انتزع وأخرج كما ينتزع السّيف من الغمد. الدّياج : الثّوب الذي سداه ولحمته حرير؛ فارسيّ معرّب، أصله «ديوباف» أي نساجة الجنّ، الدّمقس : الحرير الأبيض.

(41) المشمخرّ : العالي. رضوى وقدس : جبلان.

(42) غلائل ج. غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب. البرس (بضمّ الباء وكسرها) : القطن.

(44) النّكس : الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه والمقصّر عن غاية النجدة والكرم.

(46) الضّاحي : البارز للشّمس. الخُنس : المتأخّرون.

(47) الحقّ : ذوات الحوّة وهي سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد، وهي صفة للشّفاه. اللّعس : ذوات اللّعس وهو سواد مستحسن في الشّفاه.

(49) وكأنّ الذي يريد اتّباعا : يريد أنّ الذي يطمع في إدراكهم لن يستطيع ذلك إلاّ بعد أن يقطع خمس ليال.

(53) الزّكاء : النموّ.

أَيَّـــدُوا مُلْكَنَـــا، وشَدُّوا قُـــوَاهُ ... بِكُمَـاةٍ تَـحْتَ السَّنَـوَّرِ حُـمْسِ

55 وأَعَانُـوا عَلَـى كَتَـائِبِ «أَرْيَـا ... طَ» بِطَعْـنٍ عَلَـى النُّحُـورِ ودَعْسِ

وأَرَانِـي مِـنْ بَعْـدُ أَكْلَـفُ بـالأَشْـ ... ـرَافِ طُرًّا مـن كُـلِّ سِنْـخٍ وإِسِّ

(54) الكُماة ج الكميّ وهو الشجاع. السّنوّر : الدروع، معرّب. حُمس : ج أحمس : الشّجاع. أشار الشاعر هنا وفي البيت السابق والبيت التالي إلى العون الذي قدّمه الفرس في عهد أنو شروان إلى اليمنيّين الذين يرجع إليهم نسب الشاعر فهو قحطاني، وذلك حين ساعد الفرس سيف بن ذي يزن أمام غزو الأحباش لليمن بقيادة القائد الحبشيّ «أرياط» المذكور في البيت الموالي.

(55) الدّعس : الطّوس والطّعن.

(56) السّنخ : الأصل والمنبت. الأسّ (بفتح الهمزة وكسرها وضمّها) : أصل البناء.

عندما يفرغ القارىء من إنشاد قصيدة البحتري يبقى في مسامعه صدى صوت غالب هو صوت السّين، ورجع معنى جامع هو معنى التجاوب بين نفس الشاعر المترفّعة، رغم تزعزعها، وإيوان كسرى الصّامد، رغم تصدّعه.

ولئن كانت العلاقة بين هذا الصّوت وهذا المعنى عفويّة في منطلق العمليّة الإبداعية التي حقّقها البحتري فإنّها ما فتئت تقوى بين الطّرفين بمفعول تجاورهما في النّص والتّلازم الحاصل بينهما في مختلف أقسامه حتّى غدا أحدهما يبرّر وجود الآخر ويجد مبرّره فيه. وليس ذلك لأنّ السين كان رويّ القصيدة بنى الشاعر أبياتها عليه فحسب، ولا لأنّ معنى التجاوب بين الشاعر والإيوان فيما غيّرهما من تقلّب الأزمان، هو «عمود» النّص، وإنّما ذلك لأنّ معنى التجاوب بين الكيانين في المصيبة والصّمود تفرّع إلى شعب بعد أن كان في النّص عمودا[1]، ولشيوع السّين في حشو الأبيات أيضا، ولأنّ السّين كان المولّد لأساليب التّقسيم في كثير من أبياته، والموجّه في ضبط الحدود التي بين وحداته، والدّاعي إلى ترديد جملة من مفرداته وعباراته، فضلا عن أنّه بدا موظّفا في النّص بصفة الصّفير فيه لا بمخرجه أو بغير ذلك من صفاته، بدليل أنّ الصّاد والزّاي رفيقيْه في الصّفير، رافقاه في المسير واستدعيا كلمات وعبارات، وصورا وخيالات تحوّل معها الصّفير من صفة صوتيّة بسيطة إلى مولّد إيقاعيّ ينتظم القصيدة من أوّلها إلى آخرها.

(1) في مفهومي العمود والشعبة انظر : ضياء الدين بن الأثير، **الاستدراك في الردّ على رسالة ابن الدّهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية**، تحقيق حفني محمد شرف، القاهرة 1958، ص 9، وانظر بحثنا «الموارد» في حوليات الجامعة التونسية، السنة 1989، العدد 30، ص ص. 350 — 351.

ولكن هل كانت علاقة هذا الصّوت بهذا المعنى في منطلق العمليّة الإبداعيّة اعتباطيّة تماما ؟ ألم يكن السّين صوتا ثابتا في اسم النّفس من ناحية، وفي أسماء كسرى وبنيي ساسان والفرس من ناحية ثانية بمقتضى حضورها في النّص وحضور السّين فيها جميعا ؟ وهل لم يكن التّصدع والصّمود إلاّ وضعيّتين ثابتتين لمسمّى نفس الشاعر ولمسمّى إيوان كسرى ثبوتا خوّل للشاعر الجمع بين الكلمتين وحمله على توحيد صورتيهما كما لو كانا كائنا واحدا ذا وجهين : وجه العَلَم (الإنسان) ووجه العَمَل (الإيوان) ؟

فإذا ثبتت الصّلة بين الاسمين فبين وضعيّتي المسمّيين فلا مناص لنا من أن نعتبر أنّ الدّالّين (النّفس، إيوان كسرى) وظّفا في النّص بما يجمع بينهما (أي بالصّفير في الاسم وبالتأزم في المسمّى) لا بما بينهما من اختلاف في أصل الوضع (النفس = اسم عامّ يدلّ على الرّوح أو الذات، وايوان كسرى = معلم حضاريّ فارسيّ بالمدائن من بلاد الرّافدين).

وإذا الصّلة بين الاسم والمسمّى تصبح ملتحمة على أشدّ ما يكون الالتحام لأنّها حصيلة صلة اسم باسم من ناحية، وصلة مسمّى الأوّل بمسمّى الثاني من ناحية أخرى. وإذا بكلّ صفير في النّص يتحوّل علامة توحي بالتأزم وكلّ تأزّم يتحوّل علامة توحي بالصّفير.

* * * * *

ففي الطالع تتجمّع قوى الشاعر الإبداعية فيستهلّ الكلام بما يوطّن النفس على الصفير والتّأزم فيقول :

1 ــ صُنت نفسِي عمّا يدنّس نفسِي وترفّعت عن جدا كلّ جبسِ

وقد حضر الصفير في البيت بالسين أربع مرات وبالصّاد مرّة واحدة، وقد تجمّعت أصواته في الصدر ولم يظهر منه في العجز إلا صفير الرويّ. وصدر الطالع أوّل مصراع يفتح في وجه القارىء وفيه أولى لبنات البناء والأداء التي تحقق اللّقيا بينه وبين الشاعر فينعقد بينهما رباط محكم سيحرص الشاعر على

تواصله بتكثيف الصفير وتصوير التأزم في أواخر أبيات القصيدة بالرويّ وما يسبقه في الأعجاز من أصوات ولذلك اختلفت بنية سائر الأبيات عن الطالع وأمثال الطالع وما اتّصل بها من أبيات، بأن ضعف الصفير في أوّلها وقوي في آخرها.

والصفير أوّل صوت وآخر صوت سمعناه من الطالع وهو أيضا آخر صوت سمعناه من الصدر، فمنه كان البدء وإليه كان الانتهاء، وقد سمعناه في حشو الصّدر أيضا، فسيكون حاضرا في أطراف وحدات الكلام حضوره في الأحشاء، وإذا غاب من أول العجز فلتجنّب التشبع[1] إذ هو قد حضر مرّتين في طرفي الصدر قبل العجز وعاد إلى الحضور في آخر العجز وكان يكتنف كلمتي «يدنّس» و«ترفّعت» وهما علامتا التصدّع والتّرفع.

ولم يستقم للشاعر في ذلك أمر الاّ بترديد كلمة «نفسي» وترديدها دليل على اتجاه الشاعر إلى الإظهار بدل الإضمار الذي كان يصلح به معناه لو قال «صنت نفسي عما يدنّسها» ومن الثابت عندنا أنه ردّد كلمة «نفسي» ليحقّق بالترديد التصريع لأنّ البيت طالع، وليقيم الوزن بما يجمل من الكلام لكنّ المتأكد والأهمّ في التقدير أن نُبيّن أنه لولا هذا الترديد لما كانت تنعقد صلة في البيت بين الأصوات (س × 4 وص × 1) تدلّ على أنّها موظفة توظيفا جماليا يطاوع فيه إيقاع الأصوات انتظام المعنى ففي «صنت نفسي» تركيب يدلّ في ظاهر اللفظ على الانفصال بين الفاعل المتكلّم «ت» والمفعول «النّفس» لكنّه يؤدي معنى الاتصال لأن النفس هي نفس المتكلّم ولذلك كان ينتظر أن يقول بعد ذلك «عما يدنّسها»، محيلا بالضمير على النفس، أو «عمّا يدنّسني» محيلا بالضمير على المتكلّم كما قال «ترفعت» في العجز ولم يقل «ترفّعت نفسي» لتجنب الخلل في الوزن، وتجنّب التشبّع ولأنّ الفعل لازم غير متعدّ كفعل «صان».

(1) في مفهوم التّشبّع انظر بحثنا : «حدود صناعة الشعر» في مجموع **صناعة المعنى وتأويل النصّ**، تونس 1992، ص ص.183 ــ 188.

لكنّه بترديد كلمة نفسي في قوله «عمّا يدنّس نفسي» بان أنّه استغلّ معنى الانفصال الذي لاحظناه في ظاهر العبارة ليبيّن أنّه ــ وإن كانت نفسه على كلّ حال في حكم العنصر المتّصل به ــ فإنّه عاش لحظة من الوعي بأزمة الذات جرّد من نفسه فيها موضوعا يتحدّث عنه ليصلح من شأنه وكأنه لم يكن منه.

لكنّ الترديد لم يكن دالاّ على معنى الانفصال إلاّ بقدر ما كان أسلوبا اقتضاه هذا المعنى، ولم يكن مولّدا لصفير الأصوات في الأبيات بقدر ما كان من مقتضيات الصفير، شأنه في ذلك شأن صور ثلاث تبيّناها في تقسيم البيت تكيّف المعنى وتتكيّف به :

ــ التقسيم الأول وزني عروضي، أي مرجعه إلى إيقاع الوزن :

صنت نفسي / عمّا يدنّس نفسي وترفّعت عن جدا / كلّ جبس

فاعلاتن فاعلاتن

حيث تطفو[1] التفعيلتان الأولى والأخيرة على سطح بحر الخفيف وهما تفعيلتان متماثلتان بمعنى أنهما تتجسّمان في عبارتين متوازنتين معهما بعد أن كانتا قابعتين وراء النّص الظاهر، ممّا يدلّ على أنّ البحر المتخيّر كان له أثره هو أيضا في إيقاع البيت ويجيز لنا كتابة البيت بناء على الأربع وحدات التالية طبق الشكل الآتي :

حساب المقاطع

1 ــ صنت نفسي	فاعلاتن	4
2 ــ عمّا يدنّس نفسي	مستفعل فعلاتن	8
3 ــ وترفعت عن جدا	فعلاتن مستفعل	8
4 ــ كلّ جبس	فاعلاتن	4

(1) نعتبر أنّ التفعيلة النظرية تطفو على سطح البحر العروضي عندما تتجسّم في مادة كلمة تتوازن صيغتها معها.

حيث تتقابل البنية العروضية الوزنية في 2 و3 بين تفعيلتي 1 و4 المتطابقتين وتظهر قافية داخليّة ــ مماثلة للقافية العامة ــ في أواخر 1 و2 و4 وتغيب في 3 لتجنّب التّشبّع ويغلب الفتور على 1 و2 بسبب قصر الوحدة الأولى وطول الثانية (4 ــ 8) وكثرة المدّ (3 مرّات) لتصوير ما فات، بينما يغلب النشاط على 3 و4 بسبب طول الأولى وقصر الثانية (8 ــ 4) وقلّة المدّ لحسم المأساة.

ــ التقسيم الثاني تقفوي أي مرجعه إلى إيقاع القافية :

صنت نفسي / عمّا يدنّس نفسي / وترفّعت عن جدا كلّ جبس

ويقبل البيت هذا التقسيم إذا اعتبرنا ظهور القافية في كل مرّة علامة على نهاية وحدة كلامية فرعيّة فتوظّف تفعيلات البحر توظيفا آخر :

حساب

المقاطع

1 ــ صنت نفـ(سي)	4	فاعلاتن
2 ــ عمّا يدنّس نفـ(سي)	8	مستفعلن فاعلاتن
3 ــ وترفّعت عن جدا كلّ جبـ(س)	12	فعلاتن متفعلن فاعلاتن

حيث لا يحضر إلّا الفتور بسبب تدرّج وحدات الكلام في البيت من القصر إلى الطول (4 ــ 8 ــ 12) ويصبح الترفّع معنى يؤكد معنى صيانة النفس أكثر ممّا يدلّ على حماس خاصّ في ردّ الفعل.

ــ التقسيم الثالث تركيبي أي مرجعه إلى إيقاع التركيب :

فالبيت يقبل تقسيما ثالثا مؤسّسا على المقابلة بين الفعل وموضوع الفعل طبق الوحدات الأربع التالية :

(1) انظر بحثنا «مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي» في حوليات الجامعة التونسية، السنة 1988 العدد 28، ص ص 139 ــ 140.

1 ــ صنت نفسي	الفعل	4	
2 ــ عمّا يدنّس نفسي	مركّب الجرّ بعن (موضوع الفعل)	8	
3 ــ وترفّعت	الفعل	5	
4 ــ عن جدا كلّ جبس	مركّب الجرّ بعن (موضوع الفعل)	7	

وفي المقابلة المتولّدة من هذا التقسيم تصوير لصراع انتهى بانتصار المتكلّم على آفة التصدّع يأخذ منحى الفخر بما تحقق من كسب، ويقوم على التغنّي.

وإذا كان المنتصر في هذا الصّراع محدّدا معروفا، فإنّ الطرف المهزوم غير محدّد، كنّى عنه بالجِبس، والجِبس في اللغة الجبان واللئيم والفاسق والثقيل الروح... من البشر، أغنى الشاعر أن كان في اسمه الصفير. وأوّل مصادر الخبث والفساد النفس ذاتها، وإذا كلّ نفس متّهمة، بداية بنفس الشاعر في ماضي أمرها، إذ مرجع قوله «صنت نفسي عما يدنس نفسي» إلى قوله صنت نفسي عما (كان) يدنّس نفسي، وتأويله صنت نفسي من دنس نفسي... هنا يأخذ انفصال المتكلّم عن نفسه في اللفظ معنى الانفصال الحقيقي إذ تنتصر النفس الطيبة في الكيان على النفس الخبيثة كما كانت فيما مضى من زمان.

وستتخذ معنى الخبث في النص قوى متعددة هي التي زعزعت الشاعر كما صدعت إيوان كسرى. هذه القوى مختلفة الأسماء متشابهة الأفعال، سمّى الشاعر أوّلها بالدّهر في البيت الثاني فقال :

2 ــ وتماسكت حين زعزعني الدّهـ ر التماسا منه لتعسي ونـكسي

حيث انضاف إلى صفير السين (س × 4) صفير الزّاي (ز × 2) فاشتدّ وقع الصّفير في البيت بتعدّد مصادره من ناحية وبأثر الصفير المحقّق في الطالع من ناحية أخرى لأنّ غياب الصّفير الذي سيلحظ في غير مستوى الروي من النّص فيما سيأتي من أبيات القصيدة لا يعني غياب فعله، كيف وقد أصبح له ــ منذ الطالع ــ قانون المولّد الايقاعي ؟

وقد صوّر الشاعر في هذا البيت صراع النفس مع الدّهر وصمودها أمامه، والدّهر صورة مجرّدة للطرف المعتدي الذي كان عبّر عنه بالحبس في الطالع كناية عن كلّ متسبّب في الضّرر وإن جاز أن يكون الشاعر استوحى صورة العداوة من واقعه في علاقته بابن عمّه الذي قابله بالنبوّ (ب 9). ولمّا كان الدّهر علامة بلا صفير علّق بها الشاعر فعل زعزع لتجد محلّها في جهاز القصيدة الإبداعي. وفعل زعْزع مؤسس على ترديد صوتين ويدلّ على التحريك الشديد فاجتمع فيه الصفير والحركة، فدلّ بإيقاعه على شدّة وقعه وشدّة وقوعه، وقد عزّز الترديد فيه، تجانس الكلمتين المتتابعتين في آخر البيت :

تَعْسِي
نَكْسِي

وتجانس المجموعتين المقطعيّتين الواقعتين في مفتتح الصدر ومفتتح العجز :

(وَ) تَ مَا سَكْ...
(رُلْ) تِ مَا سَنْ

لكنّ البيت يبقى على صلة بإيقاع الطالع لأنّه يقبل التقسيم الثالث الذي قام عليه الطالع، فيتواصل فيه إيقاع التركيب على أساس الموازنة بين :

وترفعت
وتماسكت

1 ــ وتماسكتُ ــ الفعل
2 ــ حين زعزعني الدّهـ ــ مركب الاضافة ب حين
3 ــ ...نرُ التماسا منه ــ الفعل (عمل عمل المشتق)
4 ــ لتعسي ونكسي ــ مركب الجرّ باللاّم

وفي ذلك مقابلة بين الحدث وما حفّ به من ظروف وملابسات لعلّها